مقومات التـــــوبة

- التوبة النصوح ٠
- مجرد الكلام باللسان ليس توبة ٠
- التوبة كما شرحها الغزالى ٠
- شرح العناصر المكونة لحقيقة التوبة ٠
- الاستغفار ٠
- شروط الاستغفار وآدابه ٠

مقومات التوبة

مادة (ت و ب) فى لغة العرب : تدل على الرجوع والعودة ، والتوبة إلى الله تعنى : الرجوع إليه والعودة إلى رحابه والوقوف على بابه .

ذلك أن الأصل فى الإنسان : أن يكون مع الله تعالى ، موصول الحبال به ، لا يبعد عنه ، ولا يستغنى عنه سبحانه لحياة جسمه ، كما لا يستغنى عنه لحياة روحه ، بل لعل حاجته إليه فى الآخرة أشد من حاجته إليه فى الأولى ، لأن حاجة جسمه تشاركه فيها البهيمة العجماء ، أما حاجة الروح ، فهى التى تميزه عن غيره من الأنعام والحيوانات، فقد خلقه الله تعالى على طبيعة مزدوجة ، فيها : قبضة الطين ، كما فيها : نفخة الروح ، وهذه هى التى جعلته أهلا لأن تسجد له الملائكة تكريماً واحتفالا بشأنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١) .

فلم يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم إلا بعد تسويته ونفخ الروح فيه .

فإذا أطاع الإنسان ربه فقد أعلى نفخة الروح على قبضة الطين ، وبعبارة أخـرى : فقد أعلى الجانب الروحى على الجانب المادى ، أعلى الجانب الربانى الأعلى ، على الجانب الطينى الأدنى ، وبهذا يسمو الإنسان ويرتقى ، ويقرب من ربه سبحانه بقدر جهده فى الارتقاء الروحى .

وإذا عصى الإنسان ربه ، انعكست الآية ، واستعلى الطين على الروح ، وغلب الجانب المادى الأدنى على الجانب الربانى الأعلى ، وبهذا يهبط الإنسان ويتدنى ، ومن ناحية أخرى يبعد عن الله تعالى بقدر إيغاله فى الذنوب والمعاصى .

---

(١) سورة ص : ٧١ ، ٧٢ .

والتوبة تتيح له الفرصة لتدارك الفائت ، وتصحيح المسار ، فيرتقى بعد ما هبط ، ويقترب من ربه بعدما بعد ، ويرجع إليه بعدما شرد .

* * *

التوبة النصُوح :

والتوبة التى أمر بها المؤمنون هى(التوبة النصوح) التى جاء فيها قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا . . . ﴾[1] ، فما معنى التوبة النصوح ؟

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره : أى توبة صادقة جازمة ، تمحو ما قبلها من السيّئات ، وتلم شعث التائب ، وتجمعه ، وتكفر عنه ما كان يتعاطاه من الدناءات .

فالنصوح : صيغة مبالغة من ناصح ، كالشكور والصبور ، مبالغة من : شاكر وصابر . ومادة (ن ص ح) فى العربية تعنى : الخلوص ، يقال : نصح العسل ، إذا خلا من الغش ، وسلم من الشوائب الغريبة ، فالنصح فى التوبة ، مثل النصح فى العبادة ، وفى المشورة : تخليصها من كل غش ونقص وفساد ، وإيقاعها على أكمل الوجوه ، والنصح ضد الغش .

وقد اختلفت عبارات السلف فى بيان حقيقة التوبة النصوح ، حتى أوصلها الإمام القرطبى فى تفسيره إلى ثلاثة وعشرين قولا [2] ، والحق أن مرجعها إلى شىء واحد ، ولكن كل واحد منهم عبر عن حاله ، أو عن عنصر أو أكثر منها .

وذكر ابن جرير وابن كثير وابن القيم عن عمر وابن مسعود وأبى بن كعب ﷺ : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع . وروى أحمد عن ابن مسعود مرفوعا : التوبة من الذنب : أن يتوب منه ثم لا يعود فيه » وسنده ضعيف ، والموقوف أصح كما قال ابن كثير .

---

(١) التحريم : ٨ . (٢) انظر : تفسير القرطبى للآية الثامنة من سورة التحريم .

وقال الحسن البصرى : هى أن يكون العبد نادما على ما مضى ، مجمعا على ألا يعود فيه .

وقال الكلبى : أن يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك (أى يمتنع) بالبدن .

وقال سعيد بن المسيب : توبة نصوحاً : أى تنصحون بها أنفسكم ، جعلها بمعنى ناصحة للتائب ، مثل : ضروب ، مبالغة فى ضارب .

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول ، أى نصح فيها التائب ، ولم يشبها بغش ، فهى إما بمعنى : منصوح فيها ، كركوبة وحلوبة ، بمعنى : مركوبة ومحلوبة ، أو بمعنى الفاعل ، أى ناصحة كخالصة وصادقة .

وقال محمد بن كعب القرظبى : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيىء الإخوان [1] .

* * *

مجرد الكلام باللسان ليس توبة :

ليست التوبة قولاً باللسان ، كما يفهم كثير من العوام ، حين يذهب أحدهم إلى بعض شيوخ الدين ، فيقول له : يا سيدى الشيخ تَوِّبنى ! فيقول الشيخ : ردد ورائى أو قل معى : تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت على ألا أعود إلى المعاصى أبدا ، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام .

فإذا ردد هذه الكلمات وراء الشيخ خرج من عنده ، وظن أنه قد تاب !

---

(١) مدارج السالكين : ١ / ٣٠٩ ، ٣١٠ طبعة السنة المحمدية بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقى ، وتفسير ابن كثير : ٤ / ٣٩١ ، ٣٩٢ .

وهذا من الجهل القبيح من الطرفين : من العامى ومن الشيخ أيضاً ، فالتوبة ليست مجرد كلام يلوكه اللسان ، ولو كانت كذلك ما كان أسهلها ·

التوبة أمر أكبر من ذلك وأعمق وأصعب ، إن عمل اللسان مطلوب فيها بعد أن تتحقق وتتأكد ، ليعترف بالذنب ويسأل الله المغفرة ، أما مجرد الاستغفار أو إعلان التوبة باللسان - دون عقد القلب ـ فهو توبة الكذابين ، كما قال ذو النون المصرى ، وهو ما قالته السيدة رابعة : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار ! حتى قال بعضهم : استغفر الله من قولى : استغفر الله ، أى باللسان من غير توبة وندم بالقلب !

أما حقيقة التوبة فهى عمل عقلى وقلبى وبدنى ، تبدأ بعمل العقل يتبعه عمل القلب ، فيثمر عمل البدن ، ولذا قال الحسن: هى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار ألا يعود إلى الذنب ·

* * *

التوبة كما شرحها الغزالى :

والتوبة كما شرحها الإمام الغزالى فى (إحيائه) معنى مركب من ثلاثة عنـــاصر : علم وحال وعمل · فالعلم :الأول ،والحال :الثانى،والعمل :الثالث ·

قال : والأول موجب للثانى ، والثانى موجب للثالث ، إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت ·

قال رضى الله عنه :

أما العلم ، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه : ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبـــوبه

(ندما) فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضى فبتلافى ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر .

فالعلم هو الأول ، وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم : الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلائه على القلب ، فيثمر (نور) هذا الإيمان مهما أشرق على القلب (نار) الندم ، فيتألم بها القلب ، حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس ، وقد كان فى ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه ، وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك .

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال ، والتلافى للماضى : ثلاثة معان مرتبة فى الحصول ، فيطلق اسم (التوبة) على مجموعها ، وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى (الندم) وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة [1] » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ، فيكون الندم محفوفًا بطرفيه أعنى : ثمرته ومثمره [2] . ا . هـ .

* * *

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج (الإحياء) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن حيان والحاكم من حديث أنس وقال : صحيح على شرط الشيخين . أ . هـ .

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٣ ، ٤) ط - دار المعرفة - بيروت .

شرح العناصر المكونة لحقيقة التوبة :

ومما ذكره الغزالى وغيره يتبين لنا : أن حقيقة التوبة التى أمر الله بها المؤمنين جميعا لعلهم يفلحون ، كما أمرهم أن تكون توبتهم إليه توبة نصوحا ، إنما تتكون من عناصر أو مقومات ثلاثة ، مرتبة بعضها على بعض ، كما بين أبو حامد رحمه الله .

١ - العنصر المعرفى فى التوبة :

أول هذه العناصر أو المقومات هو العنصر المعرفى الإدراكى ، الذى يتجلى فى معرفة الإنسان خطأه وخطيئته حين وقع فى معصية ربه ، وانكشاف الغشاوة عن عينيه حتى يبصر ، والوقر عن أذنيه حتى يسمع ، والظلمة عن عقله حتى يدرك ، فى لحظة من لحظات اليقظة والعودة إلى سلامة الفطرة ، هنا يعرف جلال ربه ، وعزة مقامه ، وعظيم حقه ، عز وجل ، ويعرف تفريط نفسه فى جنب الله تعالى ، وطاعته لعدوه الشيطان ، وخسرانه المبين فى الآخرة والأولى ، إن استمر سائرا فى ركاب إبليس وجنوده .

وهنا يحتاج الإنسان إلى تركيز فكره ، وإعمال عقله ، والتأمل العميق فى نفسه وفيما حوله : فى مبدئه ، ومسيره ، ومصيره ، فى معنى حياته ، وفى موته وما بعد موته ، فى نعم الله المتتابعة عليه ، وموقفه منها ، فى أن خير الله تعالى إليه نازل ، وشره إلى الله صاعد ، فى تحبب الله إليه بنعمه وهو الغنى عنه ، وتبغضه إلى الله بالمعاصى ، وهو أفقر شيىء إليه ، فى أنه تعالى لم يغلق بابه عن عباده ، وإن ظلموا وأسرفوا على أنفسهم ، وأنه يناديهم دائما : ﴿ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

هذه الوقفة اليقظة مع النفس هى حجر الأساس فى بنيان التوبة ، فهى التى تدفع القلب إلى الندم ، والإرادة إلى العزم ، واللسان إلى الاستغفار ، والبدن إلى الامتناع والإقلاع .

---

(١) الزمر : ٥٣ .

وهذا ما نبه عليه القرآن فى قول الله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ من رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

بهذا الترتيب الذى دل عليه العطف بحرف (الفاء) .

فالأول هو العلم الذى يعرف به أربابه أن الحق من ربهم ، فيترتب عليه أن يؤمنوا به ، فالعلم إذن دليل الإيمان وقائده ، ويترتب على الإيمان إخبات القلوب وخشوعها .

وقال تعالى فى وصف المتقين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فهؤلاء ذكروا الله تعالى ، فاستغفروه لذنوبهم ، فالاستغفار إنما جاء ثمرة لذكر الله ، والذكر هنا : إنما هو نوع من المعرفة ، لأن المقصود به ليس هو ذكر اللسان ، كما قد يتوهم بعض الناس ، إنما هو الذكر ضد النسيان ، وهو لون من ألوان المعرفة ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (٣) .

إن العلم فى الإسلام مقدم على أحوال النفس ، وعلى أعمال الجسم ، ولا غرو أن كانت أول آية نزلت فى القرآن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (٤) . والقراءة هى مفتاح العلم .

وقال الإمام البخارى فى صحيحه : باب : العلم قبل العمل ، واستدل لذلك بقول الله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ ﴾ (٥) ، فقدم الأمر بالعلم على الأمر بالاستغفار .

---

(١) الحج : ٥٤ .
(٢) آل عمران : ١٣٥ .
(٣) الكهف : ٢٤ .
(٤) العلق : ١ .
(٥) محمد : ١٩ .

وقال القشيرى فى رسالته : أول التوبة : انتباه القلب عن رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة ، ويصل إلى هذه الجملة بالتوفيق والإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه ، بسمع قلبه ، فإنه جاء فى الخبر : « واعظ الله فى قلب كل مسلم » [1] وفى الخبر : « وإن فى البدن لمضغة إذا صلحت صلح جميع البدن ، وإذا فسدت فسد جميع البدن ألا وهى القلب » [2] فإذا فكر بقلبه فى سوء ما يصنعه ، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال : سنح فى قلبه إرادة التوبة ، والإقلاع عن قبيح المعاملات ، فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذ فى جميل الرُّجعى ، والتأهب لأسباب التوبة [3] .

٢ - العنصر الوجدانى الإرادى :

والعنصر الثانى فى التوبة : هو عنصر نفسى ، يتعلق بالوجدان والإرادة ، وبتعبير آخر : بالانفعال والنزوع .

فى هذا العنصر : ما يتصل بالماضى ، وما يتصل بالمستقبل .

* * *

(أ) الندم اللاذع :

فما يتصل بالماضى ، فهو المعبر عنه بـ (الندم) وفيه ورد الحديث : « الندم توبة » وذلك لأنه الركن الأهم فى التوبة ، كما فى حديث « الحج عرفة » لأنه الركن الأهم فى الحج ، حتى نقل القشيرى عن بعض أهل التحقيق أنه قال : يكفى الندم فى تحقيق التوبة ؛ لأن الندم يستتبع الركنين الآخرين (العزم والإقلاع) فإنه يستحيل أن يكون نادما على ما هو مصر على فعله أو عازم على الإتيان بمثله .

---

(١) رواه أحمد عن النواس بن سمعان .

(٢) متفق عليه عن النعمان بن بشير .

(٣) الرسالة القشيرية بتحقيق د . عبد الحليم محمود ، و د . محمود بن الشريف (جـ ١ / ٢٥٤ ، ٢٥٥) .

والندم : شعور أو انفعال أو توتر عاطفى ، هو عبارة عن حسرة لما فرط من الإنسان من ذنوب فى حق ربه ، وفى حق خلقه ، وفى حق نفسه ، هذه الحسرة أشبه بالنار التى تلذع القلب لذعا ، بل قد تكويه كيّا ، كلما تذكر ذنبه ، وتفريطه ، وتذكر حق ربه تعالى عليه . إنها حالة (احتراق داخلى) عبر عنه بعض الصوفية بقوله فى تعريف التوبة : ذوبان الحشا لما سبق من الخطا ، وقال آخر : هى نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب ! .

وقد صور لنا القرآن الكريم هذا الجانب النفسى الانفعالى لبعض التائبين ، فأبدع التصوير ، وأحسن التعبير ، وذلك فى قصة الصحابة الثلاثة الذين خُلفوا ، ولم ينهضوا مع رسول الله فى غزوة العسرة ، غزوة تبوك التى كانت أول لقاء للرسول الكريم مع أقوى دولة فى الأرض : دولة الروم ، ولم يقدموا للرسول أعذارًا كاذبة ، كما فعل بعض المنافقين ، فأمر النبى ﷺ بمقاطعتهم ، فبلغ بهم الندم والأسى مبلغا عظيماً ، عبر عنه القرآن بقوله : ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

ولهذا قال ذو النون : حقيقة التوبة : أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى لا يكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك ؛ كما أخبر الله فى كتابه : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ... ﴾ الآية .

ومن مظاهر هذا الندم : الاعتراف بالذنب ، وعدم الفرار من المسؤولية عنه ، وطلب الصفح والمغفرة عنه من الله تعالى .

كما رأينا فى قصة آدم بعد أكله هو وزوجه من الشجرة : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

وكما رأينا فى قصة نوح حين شفع إلى ربه فى ولده الكافر ، فكان الرد

(١) التوبة : ١١٨ .
(٢) الأعراف : ٢٣ .

الإلهى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾(١) .

هنا أحس نوح عليه السلام بخطئه، وندم عليه، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ، وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الخَاسِرِينَ﴾(٢) .

وكما رأينا في قصة موسى ، حين وكز الرجل القبطى فقضى عليه ، ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ﴾ (٣) .

وكما رأينا فى قصة ذى النون يونس : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٤) .

وغم أن هذه الذنوب التى وقعت من هؤلاء الرسل لا تعدو أن تكون من صغائر المعاصى ، وخصوصا إذا لاحظنا الظروف والملابسات التى وقعت فيها ، فسنجدها ظروفا مخففة ، ولكنهم - عليهم صلوات الله - لرهافة حسهم ، ويقظة ضمائرهم ، وقوة شعورهم بحق ربهم ، استعظموا هذه الذنوب، وأقروا بأنهم ظلموا بها أنفسهم ، فسارعوا إلى استغفار ربهم ، إنه هو الغفور الرحيم .

(ب) العزم الجازم :

وإذا كان الندم فى التوبة يتعلق بالماضى وما وقع فيه من تفريط ، فهناك أمر يتعلق بالمستقبل ، وما يتوقع فيه من تلاف للتفريط ، وتعويض بالإصلاح ، وذلك بالعزم الجازم على ترك المعصية التى يتوب منها ، تركا كليا لا رجعة فيه بحال ، كما لا يرجع اللبن إلى الضرع إذا خرج منه ، وهذا أمر مرده إلى الإرادة ، ويجب أن تكون إرادة قوية مصممة ، لا إرادة متراخية واهنة ، تقدم رِجْلاً ، وتؤخر أخرى ، تعزم اليوم ، وتفسخ فى الغد ، أو تتوب فى الصباح ، وتتراجع فى المساء !

والمهم فى هذا العزم : أن يكون قويا مصمما جازما ساعة التوبة ، بحيث لا

---

(١) هود : ٤٦ .
(٢) هود : ٤٧ .
(٣) القصص : ١٥ ، ١٦ .
(٤) الأنبياء : ٨٧ .

يشعر لحظتها بأى تردد أو حنين إلى المعصية ، أو تفكير فى إمكان معاودتها مرة أخرى - ولا ينقض التوبة : أن تضعف إرادة التائب بعد فترة ، ويغلبه هواه ، ويغره شيطانه ، فتزل قدمه ، ويسقط فى حفرة المعصية من جديد .

وهنا يطلب منه أن يبادر بالتوبة ، فيندم ويعزم من جديد ، ولا يقنط من قبول توبته إذا كانت صادقة ، فقد قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ (١) ، والأوَّاب : كثير الأوبة إلى الله تعالى ، كلما أذنب ذنبا علم أن له ربا يغفر الذنوب ولا يبالى ، فرجع إليه واستغفره ، فغفر له .

قال الإمام ابن كثير : فأما إذا جزم بالتوبة ، وصمم عليها ، فإنها تجبّ ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبت فى الصحيح : « الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » .

قال ابن كثير : وهل من شرط التوبة النصوح : الاستمرار على ذلك إلى الممات ، كما تقدم فى الحديث وفى الأثر : ثم لا يعود فيه أبدا ، أو يكفى العزم على أن لا يعود فى تكفير الماضى ، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك ، لا يكون ضارا فى تكفير ما تقدم ، لعموم قوله عليه السلام : «التوبة تجب ما قبلها»(٢)؟ .

وناقش ذلك ابن القيم فى (المدارج) ، وذكر الرأيين : رأى من يشترط عدم معاودة الذنب بحال ، وقال : متى عاد إلى الذنب ، تبينا أن توبته كانت باطلة غير صحيحة ، ورأى الأكثرين ، وهو أن ذلك ليس بشرط ، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ترك معاودته ، فإذا عاوده مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده ، صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل التوبة المتقدمة .

قال : والمسألة مبنية على أصل ،وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه إثم الذنب الذى قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة على

(١) الإسراء : ٢٥ (٢) تفسير ابن كثير : ٤ / ٣٩٢ ط . الحلبى .

الأول والآخر ، إن مات مصرا ؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية ، فلا يعود إليه إثمه ، وإنما يعاقب على هذا الأخير ؟

وفى هذا الأصل قولان :

فقالت طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول ، لفساد التوبة ، وبطلانها بالمعاودة قالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر ، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه ، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر » فهذا حال من أسلم وأساء فى إسلامه ، ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة فى الإســـلام ، فإذا أخذ بعدها بما كان منه فى حال كفره ، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما ، فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق ، كما لا تمنع الإثم اللاحق .

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والموافاة عليها ، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط ، كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه ، قالوا : والتوبة واجبة وجوباً مضيقاً مدى العمر ، فوقتها مدة العمر ، إذ يجب عليه استصحاب حكمها فى مدة عمره ، فهى بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات فى صوم اليوم ، فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطرات : بطل ما تقدم من صيامه ، ولم يعتد به ، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه .

قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح ، وهو قوله ﷺ « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثانى كفراً موجباً للخلود ، أو معصية موجبة للدخول ، فإنه لم يقل « فيرتد فيفارق الإسلام » وإنما أخبر : أنه يعمل بعمل يوجب له النار ، وفى بعض السنن « إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة ، فإذا كان عند الموت جار فى وصيته فدخل النار » فالخاتمة الســـيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية ، والأعمال بالخواتيم .

واحتج الفريق الآخر - وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذى تاب منه بنقض التوبة - بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة · وصار بمنزلة ما لم يعمله وكأنه لم يكن · فلا يعود إليه بعد ذلك ، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضى ·

قالوا : ولا يشترط فى صحة التوبة العصمة إلى الممات ، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك : مُحى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك · فإذا استأنفه استأنف إثمه ·

قالوا : فليس هذا كالكفر الذى يحبط الأعمال · فإن الكفر له شأن آخر · ولهذا يحبط جميع الحسنات · ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات ·

قالوا : والتوبة من أكبر الحسنات · فلو أبطلتها معاودة الذنب : لأبطلت غيرها من الحسنات · وهذا باطل قطعاً · وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب · والمعتزلة المخلِّدين فى النار بالكبيرة ، التى تقدمها الألوف من الحسنات · فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر فى النار · ولكن الخوارج كفروهم ،والمعتزلة فسقوهم · وكلا المذهبين باطل فى دين الإسلام · مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

قالوا : وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده مرفوعاً إلى النبى ﷺ « إن الله يحب العبد المفتن التواب » [2] .

قلت : وهو الذى كلما فتن بالذنب تاب منه ، فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوباً للرب ، ولكان ذلك أدعى إلى مقته ·

قالوا : وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار ، وعدم الإصرار ، دون المعاودة ، فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا

---

(١) النساء : ٤٠ ·

(٢) سنده ضعيف جداً ·

اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به ، فهذا الذى يمنع مغفرته .

قالوا : وأما استمرار التوبة : فشرط فى صحة كمالها ونفعها ، لا شرط فى صحة ما مضى منها ، وليس كذلك العبادات ، كصيام اليوم ، وعدد ركعات الصلاة ، فإن تلك عبادة واحدة ، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها ، وأما التوبة : فهى عبادات متعددة بتعدد الذنوب ، فكل ذنب له توبة تخصه ، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى ، لم يكن ما ترك موجباً لبطلان ما فعل ، كما تقدم تقريره .

بل نظير هذا : أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر ، فهل يكون ما أفطره منه مبطلا لأجر ما صامه منه ؟ .

بل نظير من صلى ولم يصم ، أو زكى ولم يحج .

ونكتة المسألة : أن التوبة المتقدمة حسنة ، ومعاودة الذنب سيئة ، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة ، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات .

قالوا : وهذا على أصول أهل السنة أظهر ، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين ، ويكون محبوباً لله مبغوضاً له من وجهين أيضًا ، بل يكون فيه إيمان ونفاق ، وإيمان وكفر ، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر ، فيكون من أهله ، كما قال تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ (٢) وقال ، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (٣) أثبت لهم الإيمان به ، مع مقارنة الشرك ، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله ، وإن كان معه تصديق لرسله ،

---

(١) آل عمران : ١٣٥ . (٢) آل عمران : ١٦٧ . (٣) يوسف : ١٠٦ .

وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر ، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر .

وشركهم قسمان : شرك خفى ، وشرك جلى ، فالخفى قد يغفر ، وأما الجلى فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة ، لما قام بهم من السببين .

فإذا ثبت هذا ، فمعاود الذنب : مبغوض لله من جهة معاودة الذنب ، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة ، فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة ، ولا يظلم مثقال ذرة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ا.هـ.[1] .

* * *

(١) فصلت : ٤٦ ، المدارج جـ ١ : ٢٧٦ - ٢٨٢ .

٣ - الجانب العملى فى التوبة :

وكما أن فى التوبة جانبا أو عنصرا معرفيا : يتمثل فى العلم بمقام الله تعالى وعظيم حقه على عباده ، وسابغ نعمه عليهم من ناحية ، والعلم بأضرار المعاصى والخطايا وآثارها فى الدنيا والآخرة ، ووقوفها حجابا بين الإنسان وربه ، وحاجزا دون وصوله إلى الفلاح والفوز المنشـود ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (١) .

وفى التوبة كذلك جانب أو عنصر قلبى وجدانى إرادى ، يتمثل فى نار الندم المحرقة لحطب الذنوب ، ودموع الأسف الغاسلة لأوحال الخطايا ، ونور العزيمة الصادقة المصممة على عدم العودة إلى المعصية المتوب منها مهما تكن المغريات بها والدوافع إليها .

فإن فى التوبة أيضاً جانبا أو عنصـرا عمليا لابد منه ، لتتم به حقيقة التوبة ، وتؤتى ثمارها فى النفس وفى الحياة .

وهذا الجانب العملى له أصل ، يتفرع منه فرعان ، وربما فروع .

(أ) الإقلاع عن المعصية فى الحال :

أما الأصل فهو : الترك والإقلاع عن المعصية فى الحال ، ولا معنى للتوبة إذا ظل المرء مقيما على معصيته ، لم يفارقها ولم يهجرها ، فمم تاب إذن ؟! وإنما اعتبر الترك عملا ، لأنه كف النفس عما تشتهيه من المعصية إلى ما يجب عليها من الطاعة ، ولا ريب أن هذا الكف من هذه الوجهة عمل ورياضة وجهاد فى سبيل الله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٨٥ . (٢) العنكبوت : ٦٩ .

(ب) الاستغفار :

وأما الفرعان لهذا الأصل فأولهما : (الاستغفار) بمعنى طلب المغفرة والعفو من الله تعالى ، كما قال الأب الأول : آدم ، والأم الأولى : حواء ، بعد أن أكلا من الشجرة : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

وكل تائب فى إمسٍّ الحاجة إلى الاستغفار ، كما دعا إلى ذلك القرآن والسنة وبينه السلف الصالحون .

ونظرًا لأهمية الاستغفار،وتكرر الأمر به ، والحث عليه ، فى القرآن والحديث ، سنفرد له فصلا مستقلا للحديث عنه .

* * *

(جـ) تغيير البيئة والأصحاب :

والفرع الثانى : تغيير البيئة الاجتماعية المتلطخة بالقاذورات ، التى كان يعيش فيها فى عهد المعصية والانحراف ، والبحث عن بيئة نظيفة طاهرة ، سليمة من الأمراض المعدية ، ونعنى بهذه الأمراض : أمراض الخطايا والذنوب والانحرافات ، فإنها أشد خطرا من أمراض الأبدان ، وأسرع تأثيرا منها .

وإذا كان تأثير الأمراض العضوية المعدية خطراً على الفرد وحده ، فإن خطر الانحراف والمعاصى على الفرد والمجتمع كله ، وهو ليس خطرا على الماديات والمحسات وحدها ، بل على المعنويات والأخلاقيات أيضاً ، وهى ليست خطرا على الدنيا وحدها ، بل هى خطر على الدنيا والآخرة جميعا .

ومعنى هذا : أن على التائب أن يهجر (أصدقاء السوء) الذين أغروه بالمعصية ، وجروا إليها رجله ، حتى سقط فيما سقطوا فيه منها ، فشرب الخمر ،

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

أو لعب القمار ، أو تعاطى المخدرات ، أو تاجر فى المحرمات ، أو قبل الرشوة ، أو وقع فى حبائل النساء ، أو تجسس أو تعامل مع الأعداء ، أو أضاع الصلوات ، واتبع الشهوات .. إلى غير ذلك من صنوف الخطايا .. فلابد له أن يستبدل بهؤلاء الأصحاب الأشرار ، أصحابًا أخيارا أطهارًا ، مجرد رؤيتهم تذكر بالله ، وكلامهم يرشد إلى طاعة الله ، وأعمالهم تهدى إلى طريق الله .

لابد للتائب أن يدع مصاحبة (نافخ الكير) إلى مصاحبة (حامل المسك) كما أرشدنا إلى ذلك المعلم الأول رسول الله ﷺ .

إن أثر الأصدقاء والأصحاب فى الإنسان : أثر عميق ، عبر عنه الحكماء والشعراء من قديم ، حتى قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى !

وقال الآخر :

واحذر مصاحبة اللئيم فإنها تعدى ، كما يعدى السليم الأجربُ !

والأصدقاء نوعان: صديق يأخذ بيدك إلى الجنة ، والآخر يجرك إلى النار جرًّا ، وقد حكى القرآن لنا عن خطر هذا الصنف الأخير فى الإضلال والصد عن سبيل الله ، وقد لا يعرف ذلك ضحاياهم إلا فى الآخرة ، حين ينكشف الغطاء ، ويرى الناس الحقائق مجردة ، يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (١) .

وهكذا نرى كل الأصدقاء فى الدنيا أعداء يوم القيامة ، يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، ويبرأ بعضهم من بعض ، ويقول كل منهم لصاحبه : أنت الذى أضللتنى وأغويتنى ، إلا صنفا واحدا من الأصدقاء والأخلاء ، وهم أهل

---

(١) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ .

التقوى ، الذين يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . يقول تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ومن هنا نبه بعض علماء السلوك من السلف إلى تغيير الأصدقاء ، حين قال : التوبة : ندم بالجنان ، وعزم على ترك العصيان ، واستغفار باللسان ، وإقلاع بالأبدان ، وهجر سيىء الخلان .

وهذه نظرة تربوية صحيحة ومجربة ، وهو ما نبه عليه القشيرى ونصح به التائب أن يبدأ به : هجران إخوان السوء ، فهم الذين يحملونه على رد القصد إلى التوبة ، ويشوشون عليه صحة عزمه على الطاعة (٢).

يؤيد هذا ما جاء فى الحديث الصحيح : حديث الرجل الذى قتل مائة نفس ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُل على رجل عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء . الحديث (٣) .

* * *

(د) اتباع السيئة الحسنة :

وهنا فرع آخر مكمل لهذين الفرعين ، ومؤكد للتوبة ، وهو : اتباع السيئة الحسنة لتمحو أثرها وتطهر نجسها ، وهو ما أمر به رسول الله ﷺ أبا ذر رضي الله عنه حين أوصاه تلك الوصية الجامعة ، فقال : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » (٤) .

---

(١) الزخرف : ٦٧ . (٢) الرسالة للقشيرى : ١ / ٢٥٥ .

(٣) الحديث متفق عليه عن أبى سعيد الخدرى ، ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ، انظر : المنتقى (١٩٣٦) وقد تقدم بتمامه فى صفحة ٣٣ .

(٤) رواه أحمد والترمذى عن أبى ذر وقال الترمذى : حسن صحيح ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب ورواه أيضًا أحمد والترمذى والبيهقى والطبرانى عن معاذ ، وقال الذهبى فى المهذب : إسناده حسن (الفيض : ١ ./ ١٢١) .

والمراد : أن يبادر المسلم الذى صدرت منه المعصية أن يلحقها بطاعة ، من صلاة أو صدقة ، أوصيام ، أو فعل خير أو استغفار أو ذكر وتسبيح ، إلى غير ذلك من ألوان الحسنات ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١) .

قال ابن العربى : والحسنة تمحو السيئة ، سواء كانت قبلها أم بعدها ، وكونها بعدها أولى ، إذ الأفعال تصدر عن القلوب ، وتتأثر بها ، فإذا فعل سيئة فقد تمكن فى القلب اختيارها ، فإذا اتبعها حسنة ، نشأت عن اختيار فى القلب ، فتمحو ذلك ، وظاهر قوله « تمحها » : أنها تزال حقيقة من الصحيفة ، وقيل : عبر به عن ترك المؤاخذة (٢) .

وأفضل ما تكون الحسنة بعد السيئة إذا كانت من جنسها .

فمن كانت سيئته الغيبة لشخص معين ، فالحسنة ينبغى إن تكون مدحه أمام من اغتابه عنده ، أو الاستغفار له من الله .

ومن كانت سيئته السخرية بالناس ، فلتكن حسنته توقيرهم ، وإكرامهم وذكرهم بكل خير .

ومن كانت سيئته قراءة كتب السوء ، فلتكن حسنته قراءة القرآن ، وكتب الحديث ، وعلوم الإسلام .

ومن كانت سيئته عقوق الوالدين ، فلتكن حسنته المبالغة فى برهما وإكرامهما ، والإحسان إليهما ، وخصوصا فى حالة الكبر .

ومن كانت سيئته قطع الرحم ، والاساءة إلى ذوى القربى ، فلتكن حسنته الحرص على صلتهم ، وإن قطعوا ، وإعطائهم ، وإن حرموا .

ومن كانت سيئته الجلوس فى مجالس المجون واللهو المحرم ، فلتكن حسنته الجلوس فى مجالس الخير والذكر والعلم النافع .

ومن كانت سيئته العمل فى الصحافة المعادية للإسلام ودعاته ، فلتكن حسنته العمل فى الصحافة المضادة لها ، بنشر الخبر الصادق ، والرأى السديد .

---

(١) هود : ١١٤ .

(٢) انظر : فيض القدير : ١ / ١٢٠ .

ومن كانت سيئته تأليف الكتب المضللة ،الداعية إلى المنكر فى القول والعمل ، والمحرضة على إثارة الشبهات فى الفكر ،والشهوات فى السلوك، فلتكن حسنته تأليف كتب مناقضة لها فى الاتجاه ، داعية إلى الخير ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر .

ومن كانت سيئته إشـــاعة الأغانى الخليعة ، وإثارة الغرائز الهاجعة بشتى المثيرات ، فلتكن حسنته نشر العفة ، والدعوة إلى الحياء والإحصان .

ومن كانت سيئته ظلم الناس ، والعدوان على الضعفاء ، وعلى حرماتهم وحقوقهم المادية والأدبية ، فلنكن حسنته الحرص على إقامة العدل ، وإنصاف المظلومين ، والوقوف بجانب المستضعفين والدفاع عنهم ورد ما أمكن من الحقوق إليهم .

ومن كانت سيئته السير فى ركاب الطغاة المستكبرين من الحكام وتصديقهم فى كذبهم ، وإعانتهم على ظلمهم لشعوبهم ، كانت حسنته مقاومة هؤلاء الظلمة ما استطاع ، وكشف المستور من مساوىء هؤلاء أمام الجماهير ، وفضح مخازيهم وسرقاتهم ، حتى ينفض الناس عنهم .

وهكذا ينبغى أن تكون الحسنة التى يمحو بها التائب سيئته ما اســتطاع : مناقضة لها ، مزيلة لأثرها ، مطهرة للنفس من رواسبها ، وذلك بسلوك طريق المضادة كما بين ذلك الإمام الغزالى ؛ فإنما يعالج المرض بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية ، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هى المتناسبات . فكذا ينبغى أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها ما استطاع ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً فى المحو .

هذا ، وسلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو : مشهود له فى الشرع حيث أوجب القرآن الكريم فى كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ، وذلك أن الرق نوع من الموت الأدبى بفقد الحرية ، وفى عتق الرقيق وتحرير رقبته إحياء معنوى له ، فحيث لا يمكن الإنسان أحياء نفس حسا ، فليحيها معنى ، وذلك بالتحرير .

٤ – أن تكون التوبة لله :

وهناك ركن مطلوب فى التوبة ، وإن لم يذكره الكثيرون ، أراه ملحوظا ، وإن لم يكن ملفوظا ، وهو : أن يكون الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم على عدم معاودته كلها من أجل الله تعالى ، رغبة فى ثوابه ، وخشية من عقابه .

فمن أقلع عن شرب الخمر ، لأن الطبيب حذره من شربها ، وأنها ستودى بصحته ، فتركها من أجل ذلك لم يعد تائبا ، ولم يكن تركه توبة .

ومن أقلع عن الزنى ، لأنه أصيب بمرض (الإيدز) أو خشى الإصابة به ، أو غير ذلك من الأمراض التناسلية ، فخاف على نفسه ، وهجر الزنى ، لم يكن ذلك توبة شرعية .

ومن أقلع عن الاتجار بالمخدرات ، خوفا من مطاردة الشرطة ، ومن عقوبة الإعدام التى تنتظره ، لم يكن تائبا ، ولا إقلاعه توبة .

ومن خسر ماله فى القمار ، فأقلع عنه ، لإفلاسه وضياع ثروته ، لم يكن ذلك توبة منه ، ولم يدخل هو فى زمرة التائبين .

ومن عق أباه ، فحرمه من ماله وميراثه ، فندم على عقوقه ، لم يكن ندمه هذا توبة ، ولا جزءا منها ، لأنه ندم على الدنيا ، لا على معصية الله جل شأنه .

وقد رأينا القرآن الكريم يحكى لنا قصة ابنى آدم بالحق ، إذ قتل الشرير منهما أخاه الطيب ، وقد حمل جثته مدة طويلة ، ولم يعرف كيف يواريها ، إذ كان هذا أول ميت فى تاريخ البشرية : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (١) .

فندم هذا الأخ الشرير ليس لمعصيته لربه ، وقتله لأخيه ، بل لحمله تلك المدة ، وعجزه أن يعرف طريقة لدفنه ، ولذلك لم يشفع له هذا الندم .

ولكن إذا حركت مصائب الدنيا وخسائرها بواعث الإيمان فى قلب الإنسان ، وجعلته يراجع نفسه، ويتذكر آخرته، فتاب عند ذلك ، فهو من المقبولين إن شاء الله .

---

(١) المائدة : ٣١

الاستغفار

الاستغفار : طلب المغفرة ، أى محو الذنب وإزالة أثره ، ووقاية شره ، قال ابن القيم: وحقيقة المغفرة: وقاية شر الذنب ومنه: المِغْفَر لما يقى الرأس من الأذى [1]، وإنما تطلب المغفرة من الله عز وجل، فإن من أسمائه تعالى « الغفور » ، و « الغفار » و « غافر الذنب » ومن صفاته أنه : ﴿ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [2] .

والقرآن يذكر لنا أن رسل الله تعالى إلى الأمم قد أمروهم بالاستغفار . إما مفردا أو مقرونًا بالتوبة، كما ذكر تعالى عن نوح ودعوته لقومه : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[3] .

وكما ذكر سبحانه عن هود ودعوته إلى قومه عاد ، حيث قال : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [4] .

وكذلك قال صالح لقومه ثمود : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [5] .

وكذا قال شعيب لقومه أهل مدين : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [6] .

---

(١) مدارج السالكين جـ ١ / ٣٠٨ .

(٢) الزمر : ٥٣ .

(٣) نوح : ١٠ - ١٢ .

(٤) هود : ٥٢ .

(٥) هود : ٦١ .

(٦) هود : ٩٠ .

وقال تعالى لخاتم رسله محمد ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾(١)

والاستغفار الحقيقى يتضمن التوبة ، كما أن التوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الانفراد .

وأما إذا اقترنا فى سياق واحد،كما فى قوله : « استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » فالاستغفار يعنى : طلب وقاية شـــر ما مضى من ذنوبه ، والتوبة تعنى : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله .

قال الإمام ابن القيم : فهاهنا ذنبان : ذنب قد مضى ، فالاستغفار منه : طلب وقاية شره ، وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة : العزم على أن لا يفعله ، والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله . .

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر،والتوبة طلب جلب المنفعة ؛ فالمغفرة : أن يقيه شر الذنب ، والتوبة : أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه ، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده (٢) .

وحاجة الإنسان إلى مغفرة الله: حاجة أساسية ، لأن نعم الله عليه لا تحصى ، وتقصيره في حقه تعالى لا ينكر ، ولو قال امرؤ من الناس : أنا قد قمت لله بكل حقه ، ولم أقصر فى مثقال ذرة منه ، لكان هذا نفسه أول الذنوب ، لأنه العُجْب بعينه ، والغرور القاتل ، لهـذا كان كل الناس فى حاجـــة إلى المغفرة ، وفى هذا قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ (٣) فجعل المسارعة مطلوبة إلى المغفرة قبل الجنة ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ

---

(١) فصلت : ٦ .
(٢) مدارج السالكين : ١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(٣) آل عمران : ١٣٣ .
(٤) الحديد : ٢١ .

عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ (١) . فكان ربح تجارتهم : المغفرة ، ثم إدخال الجنات .

ومن حاجة الإنسان إلى المغفرة ، تنشأ حاجته إلى الاستغفار ، فهو لا يستغنى عنه أبدًا ، لا ليلاً ولا نهارًا ، كما لا يستغنى عن الطعام والشراب ، كما قال تعالى فى الحديث القدسى الشهير الذي رواه النبى عن ربه عز وجل : « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفرونى أغفر لكم » (٢) .

وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » (٣) .

ولهذا وصف القرآن خيار عباد الله بأنهم يستغفرون الله تبارك وتعالى ، وخصوصا فى ساعات الأسحار ، وعند الوقوع فى أوحال الذنوب .

وصف الله تعالى أهل التقوى الذين يستحقون جنته ورضوانه، فقال: ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٤) .

وفى نفس السورة حدثنا الله عن الربانيين الذين قتل منهم من قتل فى سبيل الله ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا فقال : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

(١) الصف : ١٠ - ١٢ .
(٢) رواه مسلم من حديث أبى ذر .
(٣) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة . صحيح الجامع الصغير (٧٠٧٤) .
(٤) آل عمران : ١٥ - ١٧ .

وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ [1] . فقبل أن يسألوا الله التثبيت والنصر ، سألوه المغفرة لذنوبهم وإسرافهم فى أمرهم ، وفى هذا اتهام لأنفسهم بالتفريط بدل أن يتهموا الله تعالى بأنه خذلهم !! .

وفى السورة أيضًا حديث عن (أولى الألباب) الذين دعـوا ربهم بجـملة أدعية ، فكان فيها : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ [2]

وفى سورة أخرى أثنى الله على المتقين المحسنين من أوليائه ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [3] .

قال الحسن : كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر .

فياعجبًا ! يقضون الليل فى عبادة وصلاة ، ثم يأتى السحر فيستغفرون ! كأنهم لازالوا يشعرون بالتقصير .

قال ابن كثير : وقد ثبت فى الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » .

وأوجب ما يكون الاستغفار عند الوقوع فى مهاوى المعاصى وأرجاس الذنوب ، ومن ذا الذى يسلم من ذلك ؟ وهنا يجد فى الاستغفار أداة يتعلق بها لتنهضه من عثرته ، ومغسلة يتطهر بها من أدران ذنبه ، فقد ذكر تعالى من أوصاف المتقين فى كتابه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .
(٢) آل عمران : ١٩٣ .
(٣) الذاريات : ١٥ - ١٨ .

لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢) .

ولقد مدح الله أنبياءه فى القرآن بالاستغفار ، فهم أسرع الناس إليه ، وأحرصهم عليه .

فى قصة آدم أبى البشر لجأ إلى الاستغفار حين وسوس إليه الشيطان حتى أكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها هو وزوجه ، فسرعان ما قرع باب الله مستغفرًا منيبًا إليه : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٣) .

ونوح شيخ المرسلين عليه السلام يدعو ربه مستغفرًا له ولوالديه ، ولكل من له حق عليه ، وللمؤمنين والمؤمنات : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِى مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤) .

وإبراهيم يقول : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٥) .

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦) .

وموسى يتورط قبلَ بعثته فى قتل خطأ فلاذ بجناب ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٧) .

---

(١) آل عمران : ١٣٥ .
(٢) النساء : ١١٠ .
(٣) الأعراف : ٢٣ .
(٤) نوح : ٢٨ .
(٥) إبراهيم : ٤١ .
(٦) الممتحنة : ٤ ، ٥ .
(٧) القصص : ١٦ .

وفى مقام آخر قال : ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ ﴾[1] .

وقال سبحانه فى قصة داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [2] .

وقال فى قصة سليمان : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ [3] .

ومحمد عليه الصلاة والسلام أمر بالاستغفار فى آيات كثيرة ، كما فى قوله تعالى فى القرآن المكى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِىِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [4] .

وفى القرآن المدنى أمره الله بالاستغفار فى قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللهَ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [5] .

كما أمره الله تعالى بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ، فقال : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ﴾ [6] .

وقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [7] .

وهذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن ، أى أنها نزلت فى أواخر حياته ﷺ ، وبعد نزول قوله تعالى فى سورة الفتح ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ

---

(١) الأعراف : ١٥٥ .
(٢) سورة ص : ٢ .
(٣) سورة ص : ٣٥ .
(٤) غافر : ٥٥ .
(٥) النساء : ١٠٦ .
(٦) محمد : ١٩ .
(٧) النصر : ١ - ٣ .

وَمَا تَأَخَّرَ ،وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ [1] ، فهذه نزلت فى السنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية المعروف ، الذى سماه الله تعالى فتحًا مبينًا .

ومع هذا أمر بالاستغفار ، وكان أكثر الناس استغفارًا لربه ، كان أصحابه يعدون له فى المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يقول : رب اغفر لى وتب على . روى النسائى عن ابن عمر أنه سمع النبى ﷺ يقول :« استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، وأتوب إليه » فى المجلس قبل أن يقوم : مائة مرة » وفى رواية : « إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ فى المجلس : رب اغفر لى وتب على ، إنك أنت التواب الغفور : مائة مرة » [2] .

وفى صحيح مسلم من حديث الأغر المزنى : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وفسر العلماء (الغين) الذى يعترى قلبه عليه الصلاة والسلام بأنه : فترة الانشغال عن الذكر الذى شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما ، عد ذلك ذنبا ، فاستغفر الله منه .

وقيل : هو شيىء يعترى القلب ، مما يقع من حديث النفس ، بحكم الطبيعة البشرية .

وقيل : الأنبياء أشد الناس اجتهادا فى طاعة الله ، لما حباهم من المعرفة

---

(١) الفتح : ٢ .

(٢) فتح البارى : ١١ / ١٠١ ، ١٠٢ .

بحقه ، فهم دائبون فى شكره ، معترفون له بالتقصير أبدًا بما يجب له سبحانه وقال الغزالى فى (الإحياء) : كان ﷺ دائم الترقى ، فكلما ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها ، فاستغفر من الحالة السابقة [1] .

وقال المحاسبى : الملائكة والأنبياء أشد لله خوفًا ممن دونهم ، وخوفهم خوف إجلال وإعظام ، واستغفارهم من التقصير لا من الذنب المحقق .

وقال القاضى عياض : يحتمل أن يكون قـــوله : « رب اغفر لى خطيئتى » واغفر لى ما قدمت وما أخرت » على سبيل التواضع والاستكانة والخضوع ، والشكر لربه ، لما علم أنه قد غفر له [2] .

وقد صح عنه ﷺ من صيغ الاستغفار وعباراته : ما لـم يرو عن رسـول ولا نبى ، مثل قوله فى الصلاة : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى جِدى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير » [3] .

وقال : « سيد الاستغفار : أن تقـــول : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ! خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » [4] .

قال الشيخ ابن أبى جمرة : جمع ﷺ فى هذا الحديث ، من بديع المعانى ، وحسن الألفاظ : ما يحق له أن يسمى : « سيد الاستغفار » ، ففيه : الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية ، والاعتراف بأنه الخالق ، والإقرار بالعـــهد الذى أخذه

---

(١) فتح البارى : ١١ / ١٠١ ، ١٠٢ . (٢) فتح البارى : ١١ / ١٩٨ .

(٣) رواه الشيخان عن أبى موسى ، الفتح ١١/ ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الدعوات عن شداد بن أوس برقم (٦٣٠٦) .

عليه ، والرجاء بما وعده به ، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه ، وإضافة النعمة إلى موجدها ، وإضافة الذنب إلى نفسه ، ورغبته فى المغفرة ، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو ، وفى كلٍّ ذلك الإشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة ، فإن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان فى ذلك عون من الله تعالى ، وهذا القدر هو الذى يكْنى عنه بالحقيقة » [1] (انتهى ملخصًا) .

* * *

شروط الاستغفار وآدابه :

للاستغفار المقبول عند الله شروط لابد منها ، وآداب مكملة لها :

١ - وأول هذه الشروط : صحة النية ، والإخلاص لله تعالى ، فإن الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [2] .

وقال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » متفق عليه .

٢ - وثانى هذه الشروط : أن يواطىء القلب اللسان على الاستغفار ، فلا يقول بلسانه : استغفر الله ، وقلبه مصر على المعصية ، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه !

وقالت رابعة رضي الله عنها : استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار ! وذلك لأنه يقول بلسانه ما ليس فى قلبه .

٣ - ومن الآداب المكملة : أن يكون على طهارة ، حتى يكون فى أكمل أحواله ظاهرا وباطنا ، كما فى حديث على بن أبى طالب ، قال : حدثنى أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وصدق أبو بكر : سمعت النبى ﷺ يقول : « ما من رجل يذنب ذنبا ، ثم يقوم فيتطهر فيحسن الطهور ، ثم يستغفر الله عز وجل ، إلا غفر له ، ثم

---

(١) فتح البارى : ١١ / ١٠٠ . (٢) البينة : ٥ .

تلا [1] : ﴿ والَّذينَ إذَا فَعَلُوا فَاحشَةً أوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

وفى حديث أبى بكر مرفوعا : « ما أصرَّ من استغفر ، ولو عاد فى اليوم سبعين مرة ﴾ [3] .

٤ - ومن هذه الآداب : أن يستغفر الله تعالى ، وهو بين الخوف والرجاء ، فقد وصف الله تعالى نفسه بقوله ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ [4] : وقال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [5] ، ﴿ إنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ للنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ ﴾ [6] .

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [7] .

وأمثال هذه الآيات كثير، وكلها تغرس فى القلب التوازن بين الخوف والرجاء ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

فلا ينبغى للعاصى أن يدع الاستغفار مهما تكن ذنوبه من الكثرة ، والعظم ، فإن مغفرة الله تعالى أعظم منها ، ورحمته أوسع ، وعفوه أكبر .

وفى الحديث القدسى الشهير الذى رواه مسلم عن أبى ذر عن النبى ﷺ عن ربه عز وجل : « يا عبادى ، إنكم تذنبون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم » .

---

(١) قال الحافظ : أخرجه أحمد والأربعة وصححه ابن حبان ، الفتح: ١١ / ٩٨ . ونسبه فى الجامع الصغير إلى أبى داود والترمذى . وذكره الألبانى ضعيف الجامع (٥٠٠٦) .

(٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) فى الفتح : أخرجه أبو داود والترمذى - نفسه .

(٤) غافر : ٣ . (٥) المائدة : ٩٨ .

(٦) الرعد : ٦ . (٧) الحجر : ٤ .

٥ - ومن ذلك : أن يتخـــير الأوقات الفاضلة ، مثل أوقات السحر ، كما قال تعالى: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[١]، ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[٢] .

ولما قال أبناء يعقـــوب لأبيهـــم : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[٣] قال المفسرون : إنه آخر الاستـغفار إلى وقت السحر ، لأنه أقرب إلى الاستجابة ، وأبعد عن الرياء، وأصفى للقلوب ،وهو وقت التجلى الإلهى فى الثلث الأخير من الليل .

٦ - ومن الآداب : الاستغفار فى الصلاة : فى الســجود ، وقبل الســلام ، أو بعد السلام .

وقد علم النبى ﷺ أبا بكر الصديق أن يقول فى الصلاة قبل السلام : « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفـــرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

٧ - ومن الآداب : أن يدعو لنفسه وللمؤمنين ، فيدخل فى زمرتهم ، عسى أن يرحمه الله تعالى ويغفر له ببركتهم وفى زمرتهم .

ولهذا نجد الأنبياء لا يقتصرون على الاستغفار لأنفسهم ، بل لهم ولوالديهم وللمؤمنين والمؤمنات كما فى دعاء نوح وإبراهيم وغيرهما .

فمن دعاء نوح : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[٤] .

ومن دعاء إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾[٥] .

---

(١) آل عمران : ١٧ .
(٢) الذاريات : ١٨ .
(٣) يوسف : ٩٧ ، ٩٨ .
(٤) نوح : ٢٨ .
(٥) إبراهيم : ٤١ .

٨ - ومن الآداب : أن يدعو ويستغفر بالصيغ المذكورة فى القرآن ، والمأثورة فى السنة ، فهى أنصع بيانا ، وأرجح ميزانا ، وأجمع للمعانى ، وأروع فى المبانى ، وأعظم تأثيرا فى القلوب ، بخلاف ما يصنعه الناس من صيغ يختارونها ، وأوراد يؤلفونها ، فلن يكون لها حلاوة الكلمات القرآنية ، وطلاوة العبارات النبوية .

على أن فى الاستغفار والدعاء بالمأثور أجرين :

١ - أجر الدعاء والاستغفار .

٢ - وأجر الاتباع والاقتداء .

ومن الصيغ والأدعية القرآنية : الأدعية التى ذكرها القرآن عن آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل والأنبياء والصالحين . مثل :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المصيرُ * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ، إِنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ (٥) .

---

(١) الأعراف : ٢٣ .　　(٢) الممتحنة : ٤ ، ٥ .

(٣) آل عمران : ١٤٧ .　　(٤) الحشر : ١٠ .　　(٥) آل عمران : ١٩٣ .

ومن الحديث : جاءت صيغ كثيرة متنوعة ، منها : سيد الاستغفار ، الذى تقدم ذكره .

ومنها : اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإســـرافى فى أمرى ، وقد تقدم .

ومنها : « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد ، اللهم نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » رواه البخارى عن أبى هريرة ورواه الشيخان عن عائشة . وقد كان يدعو به بعد تكبيرة الإحرام ، وقبل قراءة الفاتحة .

ومنها : « اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع لى فى دارى ، وبارك لى فى رزقى » رواه أحمد والترمذى وحسنه أبو يعلى وغيرهم عن أبى موسى .

هل ينفع الاستغفار مع الإصرار ؟ :

ومن الأسئلة التى تبرز هنا : هل ينفع الاستغفار صاحبه مع إصراره على المعصية ، صغيرة كانت أو كبيرة ؟ .

اختلف أرباب السلوك فى ذلك :

فمنهم من قال : ينفع بإطلاق ، وإن لم يكن معه عزم وتوبة .

ومنهم من قال : لا ينفع بإطلاق ، حتى يكون معه توبة .

ومنهم من فصل فى ذلك .

وأنا من هذا الصنف الثالث ، فأقول : إن الاستغفار بمجرد اللسان ينفع المستغفر ، إذا صحبه حرارة الابتهال ، والصدق فى السؤال ، والتضرع فى الحال ، والشعور بالفقر إلى المغفرة فى الاستقبال ، فهو يسأل الله المغفرة سؤال عبد فقير إلى مولاه الغنى ، وسؤال مخلوق ضعيف إلى خالقه القوى ، وسؤال كائن صغير إلى ربه الكبير ، بل ربه الأكـــبر ، الذى لا تضيق به رحمته ، ولا تعجزه مغفرته ، لا

تنفعه طاعته ، ولا تضره معصيته ، فهو إذا استغفر بهذا الشعور ، وبهذه الروح ، جدير ألا يضيع استغفاره هباء · ومن الأدلة على ذلك :

أولا : ما سبق إيراده من آيات القرآن وأحاديث الرسول فى فضل الاستغفار ، وهى غريزة وفيرة ، وقد وردت مطلقة ، تشمل المصر وغيره ، فلماذا نقيدها بقيد عدم الإصرار ؟ ·

ثانيا : أن الاستغفار - ولو كان باللسان - حسنة فى ذاته تصلح لتكفير السيئات ، فكيف إذا كان معه التضرع والابتهال ؟ ·

وقد قال الإمام الغزالى رحمه الله : بل أقول : الاستغفار باللسان أيضًا : حسنة ؛ إذ حركة اللسان بها عن غفلة : خير من حركة اللسان بغيبة ، أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه ، وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب ، ولذا قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن لسانى يجرى بالذكر والقرآن ، وقلبى غافل ! فقال له : اشكر الله تعالى ، إذ استعمل جارحة من جوارحك فى خير ، وعوده الذكر ، ولم يستعمله فى الشر ، ولم يعوده الفضول [1] !

ثالثا : أن لله تعالى وعد - ووعده الحق - أنه لا يضيع عمل عامل ، ولا أجر محسن ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [2] ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحْسِنِينَ ﴾ [3]، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [5] ، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [6] والاستغفار - كما ذكرنا - عمل ، وعمل حسن فى حد ذاته ·

---

(١) الإحياء : ٤ ·
(٢) الكهف : ٣٠ ·
(٣) هود : ١١ ·
(٤) الزلزلة : ٧ ·
(٥) النساء : ٤٠ ·
(٦) آل عمران : ١٩٥ ·

وأما الحديث الذى رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس مرفوعا : « المستغفر من الذنب - وهو مصر عليه - كالمستهزىء بربه » فهو حديث ضعيف ، والراجح أنه موقوف على ابن عباس ، وليس بحديث نبوى[1]، وعلى فرض التسليم بثبوته ، فهو محمول على من قال ذلك بحكم العادة ، ومجاراة للآخرين ، مع الغفلة عن المعنى ، ودون تضرع ولا ابتهال .

وكذا ما نقل عن بعضهم من قوله : الاستغفار من غير إقلاع : توبة الكذابين ! وقول الآخر : أستغفر الله من قولى : أستغفر الله ! فهو محمول على الاستغفار بمجرد القول باللسان ، من غير أن يكون للقلب فيه شركة عمل .

وما قالته رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ! فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب ، فهو يحتاج إلى استغفار من غفلة جنانه ، لا من حركة لسانه ، فإن من سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً يحتاج إلى استغفارين ، لا إلى استغفار واحد ! .

فهكذا ينبغى أن تفهم حمد ما يحمد ، وذم ما يذم ، وإلا جهلت معنى قول القائل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ! فإن هذه أمور تثبت بالإضافة (أى أمور نسبية) فلا ينبغى أن تؤخذ عن غير إضافة ، بل ينبغى ألا يستحقر ذرات الطاعات والسيئات .

ولقد قال الإمام جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : خبأ رضاه فى طاعته ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل رضاه فيه ، وخبأ سخطه فى معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل غضبه فيه ، وخبأ وليه فى عباده ، فلا تحقروا من عباد الله أحدا ، فلعله ولى الله .

وقال سهل بن عبد الله : لابد للعبد فى كل حال من مولاه ، فأحسن أحواله :

---

(١) ذكر الحافظ فى الفتح حديث ابن عباس ولفظه : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » فقال : الراجح أن قوله : المستغفر إلى آخره : موقوف ، وأوله عند ابن ماجه والطبرانى من حديث ابن مسعود وسنده حسن .(الفتح : ١٣ / ٤٧١) .

أن يرجع إليه فى كل شىء مما قدره وقضاه ، فإن عصاه قال : يا رب استر علىّ ، فاذا فرغ من المعصـــية قال : يارب تب علىى ! فإذا تاب قال : يارب ، ارزقنى العصمة ! فإذا عمل الطاعة قال : يا رب تقبل منى ! .

وقال الغزالى فى الإحياء : إياك أن تستحقر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تبقيها ، كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل ، تعللا بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد ، تقول : وأى غنى يحصل فى خيط واحد ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ لا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة ، فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا [1] .

وذكر فى « كتاب الأذكار » عن الربيع بن خيثم أنه قال لا تقل : أستغفر الله وأتوب إليه ، فيكون ذنبا وكذبا إن لم تفعل ، بل قل : اللهم اغفر لى وتب على ، قال النووى : هذا حسن ، وأما كراهية (أستغفر الله) وتسميته كذبا ، فلا يوافق عليه ؛ لأن معنى (أستغفر الله) أطلب مغفرته ، وليس هذا كذبا . قال : ويكفى فى رده حديث ابن مسعود بلفظ : « من قال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه : غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه الحاكم . قال الحافظ بن حجر : هذا فى لفظ (أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم » وأما « أتوب إليه » فهو الذى عنى الربيع رحمه الله أنه كذب ، وهو كذلك إذا قاله ولم يفعل التوبة كما قال » وفى الاستدلال للرد عليه بحديث ابن مسعود نظر ؛ لجواز أن يكون المراد منه ما إذا قالها وفعل شروط التوبة ، ويحتمل أن يكون الربيع قصد مجموع اللفظين ، لا خصوص (أستغفر الله) فيصح كلامه كله ، والله أعلم .

قال الحافظ : ورأيت فى الحلبيات للسبكى الكبير : الاستغفار طلب المغفرة إما

---

(١) من إحياء علوم الدين ، كتاب التوبة بتصرف .

باللسان أو بالقلب أو بهما ، فالأول فيه نفع لأنه خير من السكوت ، ولأنه يعتاد قول الخير ، والثانى نافع جداً ، والثالث أبلغ منهما ، لكنهما لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة ، فإن العاصى المصر يطلب المغفرة ، ولا يستلزم ذلك وجود التوبة منه ، إلى أن قال : والذى ذكرته من أن معنى الاستغفار هو غير معنى التوبة ، هو بحسب وضع اللفظ ، لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ (أستغفر الله) معناه التوبة ، فمن كان ذلك معتقده ، فهو يريد التوبة لا محالة ، ثم قال : وذكر بعض العلماء أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ والمشهور أنه لا يشترط [1] .

* * *

(١) فتح البارى : ١٣ / ٤٧٢ .